128705 ـ حديث (نَفَسيْ جهنم)، والرد على من كذبه

السؤال

دائماً ما كنت أستغرب الحديث بأن الطقس إذا كان حارّاً فإن هذا نفَس من أنفاس جهنم ، فهل هذا الحديث ضعيف؟ لأنه وفقاً للحقائق التي سمعتها أننا نحصل على فصول السنة من خلال الشمس ، وميل الأرض ؟ .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً :

الحديث المشار إليه حديث صحيح في أعلى درجات الصحة ، وقد اتفق على إخراجه الإمامان البخاري ومسلم ، رحمهما الله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ : نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ) رواه البخاري (3260) ومسلم (617) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

"والمراد بالزمهرير : شدة البرد ، واستشكل وجوده في النار ، ولا إشكال ؛ لأن المراد بالنار: محلها ، وفيها طبقة زمهريرية" انتهى .

" فتح الباري " (2 / 19) .

ثانياً :

هل كان كلام النار ، وشكوتها ، بلسان المقال أم بلسان الحال ؟ أكثر العلماء ـ وهو الصواب بلا ريب ـ على أنه كان بلسان المقال .

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله :

"وأما قوله في هذا الحديث : (اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضي بعضاً .... الحديث) : فإن قوماً حملوه على الحقيقة ، وأنها أنطقها الذي أنطق كل شيء ، واحتجوا بقول الله عز وجل : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ) النور/24 ، وبقوله : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) الإسراء/44 ، وبقوله : (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) سبأ/10 ، أي : سبّحي معه ، وقال : (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِشْرَاقِ) ص/18 ، وبقوله : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) ق/ 30 ، وما كان من مثل هذا ، وهو في القرآن كثير ، حملوا ذلك كله على الحقيقة ، لا على المجاز ، وكذلك قالوا في قوله عز وجل : (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) الفرقان/ 12 ، و (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) الملك/8 ، وما كان مثل هذا كله .

وقال آخرون في قوله عز وجل : (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) و (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) : هذا تعظيم لشأنها ، ومثل ذلك قوله عز وجل : (جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) الكهف/77 ، فأضاف إليه الإرادة مجازاً ، وجعلوا ذلك من باب المجاز ، والتمثيل في كل ما تقدم ذكره ، على معنى أن هذه الأشياء لو كانت مما تنطق ، أو تعقل : لكان هذا نطقها وفعلها .

فمَن حمل قول النار وشكواها على هذا : احتج بما وصفنا ، ومن حمل ذلك على الحقيقة : قال : جائز أن يُنطقها الله ، كما تنطق الأيدي ، والجلود ، والأرجل يوم القيامة ، وهو الظاهر من قول الله عز وجل : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) ق/ 30 ، ومن قوله : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) الإسراء/44 ، و (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ) النمل/18 ، وقال : قوله عز وجل : (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) الملك/8 : أي : تتقطع عليهم غيظاً ، كما تقول : فلان يتقد عليك غيظاً ، وقال عز وجل : (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) الفرقان/ 12 ، فأضاف إليها الرؤية ، والتغيظ ، إضافة حقيقية ، وكذلك كل ما في القرآن من مثل ذلك .

ومن هذا الباب عندهم قوله : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) الدخان/29 ، و (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً) مريم/ 90 ، و (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) فصلت/11 ، (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) البقرة/74 ، قالوا : وجائز أن تكون للجلود إرادة لا تشبه إرادتنا ، كما للجمادات تسبيح وليس كتسبيحنا ، وللجبال ، والشجر سجود وليس كسجودنا .

والاحتجاج لكلا القولين يطول ، وليس هذا موضع ذِكره ، وحمْل كلام الله تعالى ، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم على الحقيقة : أولى بذوي الدّين ، والحق ؛ لأنه يقص الحق ، وقوله الحق ، تبارك وتعالى علوّاً كبيراً" انتهى .

" التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد " (5 / 11 – 16) .

ثم اختلف العلماء أيضا في نفسي جهنم ، هل هما على الحقيقة ، أم على المجاز؟ وأكثر العلماء على أن ذلك على الحقيقة أيضاً .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

"قال القرطبي : لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته ، قال : وإذا أخبر الصادق بأمر جائز : لم يُحتج إلى تأويله ، فحمله على حقيقته : أولى ، وقال النووي نحو ذلك ، ثم قال : حمله على حقيقته هو الصواب ، وقال نحو ذلك التوربشتى .

ورجح البيضاوي حمله على المجاز ، فقال : شكواها مجاز عن غليانها ، وأكلها بعضها بعضاً: مجاز عن ازدحام أجزائها ، وتنفسها : مجاز عن خروج ما يبرز منها ، وقال الزين بن المنير : المختار حمله على الحقيقة ؛ لصلاحية القدرة لذلك [يعني : أن الله تعالى يقدر على ذلك] ، ولأن استعارة الكلام للحال وإن عهدت وسمعت ، لكن الشكوى ، وتفسيرها ، والتعليل له ، والإذن ، والقبول ، والتنفس ، وقصره على اثنين فقط : بعيد من المجاز خارج عما أُلِف من استعماله" انتهى .

" فتح الباري " (2 / 19) .

وقال الزرقاني رحمه الله :

"(أن النار اشتكت إلى ربها) حقيقة ، بلسان المقال ، كما رجحه من فحول الرجال : ابن عبد البر ، وعياض ، والقرطبي ، والنووي ، وابن المنير ، والتوربشتي ، ولا مانع منه سوى ما يخطر للواهم من الخيال" انتهى .

" شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك " (1 / 59) .

وقد رد بعض الجهلة هذا الحديث بزعم أنه مخالف للواقع ، من أن اختلاف الفصول إنما يرجع للعلاقة بين الشمس والأرض .

والجواب على هؤلاء أسهل مما يتصورون ؛ وذلك أن هذا الحديث ليس فيه أن اختلاف الفصول أو حصول الشتاء والصيف هو بسبب نفَسَيْ جهنم .

بل الحديث نفْسُه يدل على وجود الفصلين (الشتاء والصيف) ابتداءً ، وأن "شدة الحر" و "شدة البرد" هما من أثر نفَسَي جهنم ، لا أنهما يكوّنان "الصيف" و "الشتاء" ، وهذا واضح بأدنى تأمل في الحديث .

قال ابن عبد البر رحمه الله :

"وأما قوله : (فأذن لها بنفسين : نفسٍ في الشتاء ، ونفس في الصيف) : فيدل على أن نفَسها في الشتاء : غير الشتاء ، ونفَسها في الصيف : غير الصيف" انتهى .

" التمهيد " (5 / 8) .

وقد رَدَّ آخرون الحديث لأن سبب شدة الحر أو شدة البرد معروف ، وهو بعد الشمس أو قربها من الأرض .

وقد أجاب العلماء عن ذلك أيضاً ، وبينوا أنه لا تعارض بين الحديث ، وبين الواقع ،

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله :

"وفي هذا الحديث : دليل على أن الجمادات لها إحساس لقوله : (اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب أكل بعضي بعضاً) ، من شدة الحر ، وشدة البرد , فأذن الله لها أن تتنفس في الشتاء ، وتتنفس في الصيف , تتنفس في الصيف ليخف عليها الحرَّ , وفي الشتاء ليخفَّ عليها البرد , وعلى هذا فأشد ما نجد من الحرِّ : يكون من فيح جهنم , وأشد ما يكون من الزمهرير : من زمهرير جهنم .

فإن قال قائل : هذا مشكل حسَب الواقع ؛ لأن من المعروف أن سبب البرودة في الشتاء هو : بُعد الشمس عن مُسامتة الرؤوس , وأنها تتجه إلى الأرض على جانب ، بخلاف الحر ، فيقال : هذا سبب حسِّي ، لكن هناك سبب وراء ذلك , وهو السبب الشرعي الذي لا يُدرك إلا بالوحي , ولا مناقضة أن يكون الحرُّ الشديد الذي سببه أن الشمس تكون على الرؤوس أيضا يُؤذن للنار أن تتنفس فيزدادُ حرُّ الشمس , وكذلك بالنسبة للبرد : الشمس تميل إلى الجنوب , ويكون الجوُّ بارداً بسبب بُعدها عن مُسامتة الرؤوس , ولا مانع من أنّ الله تعالى يأذن للنار بأن يَخرج منها شيءٌ من الزمهرير ليبرِّد الجو ، فيجتمع في هذا : السبب الشرعي المُدرَك بالوحي , والسبب الحسِّي ، المُدرَك بالحسِّ .

ونظير هذا : الكسوف ، والخسوف , الكسوف معروف سببه , والخسوف معروف سببه .

سبب خسوف القمر: حيلولة الأرض بينه ، وبين الشمس , ولهذا لا يكون إلا في المقابلة , يعني : لا يمكن يقع خسوف القمر إلا إذا قابل جُرمُه جرمَ الشمس , وذلك في ليالي الإبدار ، حيث يكون هو في المشرق ، وهي في المغرب أو هو في المغرب ، وهي في المشرق .

أما الكسوف فسببه : حيلولة القمر بين الشمس ، والأرض , ولهذا لا يكون إلا في الوقت الذي يمكن أن يتقارب جُرما النيّرين , وذلك في التاسع والعشرين أو الثلاثين ، أو الثامن والعشرين , هذا أمر معروف , مُدرك بالحساب , لكن السبب الشرعي الذي أدركناه بالوحي هو : أن الله (يخوّف بهما العباد) , ولا مانع من أن يجتمع السببان الحسي والشرعي , لكن من ضاق ذرعاً بالشرع : قال : هذا مخالف للواقع ولا نصدق به , ومن غالى في الشرع : قال : لا عبرة بهذه الأسباب الطبيعية ، ولهذا قالوا : يمكن أن يكسف القمر في ليلة العاشر من الشهر ! .... لكن حسَب سنَّة الله عز وجل في هذا الكون : أنه لا يمكن أن يَنخسف القمر في الليلة العاشر أبداً" انتهى .

" شرح صحيح مسلم " (شرح كتاب الصلاة ومواقيتها ، شريط رقم 10 ، وجه أ) .

ونرجو أن يكون ما ذكرناه كافياً لتوضيح معنى الحديث ، وأنه لا يمكن للشرع أن يخالف شيئاً محسوساً في الواقع ، وإنما أتي الناس من جهلهم .

والله أعلم